جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
المجلة العلمية

التهيئة للمعنى بالاستفهام عن الدراية في الصحيحين مقاماتها وأسرارها البلاغية

إعداد

د/ كارم مسعود محمد الفقي
مدرس البلاغة والنقد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بدسوق

(العدد الثامن والثلاثون)
(الإصدار الثالث .. أغسطس)
(١٤٤٧هـ - ٢٠٢٥م)

علمية - محكمة - ربع سنوية
الترقيم الدولي: ISSN 2535-177X

التهيئة للمعنى بالاستفهام عن الدراية في الصحيحين مقاماتها وأسرارها البلاغية.

كارم مسعود محمد الفقي

قسم البلاغة والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بدسوق، جامعة الأزهر، مصر.

البريد الإلكتروني: 739.el@azhar.edu.eg

الملخص:

هذا بحث بعنوان "التهيئة للمعنى بالاستفهام عن الدراية في الصحيحين مقاماتها وأسرارها البلاغية"، وهو يتعرض لأسلوب من أساليب التعبير النبوي الرفيعة؛ هذا الأسلوب يتمثل في توجيه سؤال للمخاطبين، يُسألون فيه عن درايتهم بالمسئول عنه؛ حتى ينتبهوا للأمر وتتهيأ نفوسهم لتلقيه؛ فإذا ما تهيأت نفوسهم أُلقي إليهم؛ فوقع منها أحسن موقع، والدراسة عُنيت بالاستفهام الصادر من النبي ﷺ، ولم تتعرض لما ورد في الصحيحين من استفهامات صدرت من بعض أصحابه، وقد وقع هذا الأسلوب في الصحيحين تمهيدًا وتهيئة للحديث عن معانٍ جليلة تحتاج إلى تنبيه وتهيئة وإعداد حتى تثبت في الأذهان وتَقَرّ مقتضيات الدراية بها في القلوب: منها الإيمان بالله وحده، وحرمة الدماء والأموال والأعراض، وسيادة النبي ﷺ للناس جميعا يوم القيامة، وردّ إساءة أهل الكتاب بمثلها دون تجاوز، وبعض علامات الساعة، والإفلاس بالمفهوم النبوي، وبُعْد قعر جهنم، وجرأة العبد على ربه يوم القيامة، وقد تعرضت الدراسة لهذا الأسلوب في مقاماته التي وردت في الصحيحين، وحاولت الكشف عن مدى ملاءمة هذا الأسلوب لمقامه الذي ورد فيه.

الكلمات المفتاحية: التهيئة، المعنى، الاستفهام، الدراية، أتدرون.

Preparing for Meaning by Interrogating Knowledge in the Two Sahihs: Its Positions and Rhetorical Secrets.

Karem Masoud Muhammad Al-Feqi
Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Islamic and Arabic Studies for Boys, Desouk, Al-Azhar University, Egypt.
Email: 739.el@azhar.edu.eg

Abstract:
This research is entitled "Preparing for the Meaning by Asking About Knowledge in the Two Sahihs: Its Positions and Rhetorical Secrets." It deals with a style of high prophetic expression. This style consists of directing a question to the addressees, in which they are asked about their knowledge of the subject being asked. So that they may pay attention to the matter and their souls may be prepared to receive it. When their souls are prepared, it is given to them, and it falls into the best position. The study focused on the questions asked by the Prophet, peace and blessings be upon him, and did not pay attention to the questions mentioned in the two Sahihs that were asked by some of his companions. This style was found in the two Sahihs as a prelude and preparation for speaking about sublime meanings that need to be prepared, and made ready so that they are established in the minds and the requirements of knowledge of them are established in the hearts: including belief in God alone, the sanctity of blood, money, and honor, the sovereignty of the Prophet, peace and blessings be upon him, over all people on the Day of Resurrection, Responding to the insults of Jews and Christians with the same words without going beyond that, Some of the signs of the Day of Resurrection, bankruptcy according to the prophetic concept, the depth of Hell, and the audacity of the servant towards his Lord on the Day of Resurrection. The study addressed this method in its positions that were mentioned in the two Sahihs, and attempted to reveal the extent of its suitability to the position in which it was mentioned.

Keywords: Preparation, meaning, Questioning, knowledge, Do you know.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي هدانا للإيمان، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والصلاة والسلام على من أدى الأمانة، وبلغ الرسالة، ونصح للأمة؛ فكشف الله به الغمة، وأَخرج الناسَ به من الظلمة؛ فاهتدوا بعد الضلالة، ودَروا بعد الغفلة والجهالة، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين.

أما بعد:

فالمعاني الشريفة لا ينبغي لها أن تُلقى دفعة واحدة، وإنما ينبغي أن يُمهّد لها صاحبُها، ويُهيئ الأسماعَ لتتلقَّاها، والقلوبَ لتقعَ فيها، وقد تعددتْ أساليب التهيئة للمعاني وتنوعت، ووقع كثير منها في كلام أفصح العرب وسيد البشرﷺ، وألهمه ربّه منها ما يصِل به إلى مراده من تبليغِ الدعوة، والتأثيرِ على الأتباع، وحمْلِهم على الاستجابة والطاعة، ومن تلك الأساليب الاستفهام عن الدراية، وأعني به دخول الاستفهام على الفعل **(درى)** نحو: **(أتدرون...؟ هل تدرون...؟)** وقد ورد هذا الأسلوب تمهيدًا للمعنى وتهيئةً للنفوس.

وبالنظر في الصحيحين تبيّن لي وقوع هذا الأسلوب في عدة مواضع، وأن النبيﷺ أتى به تمهيدًا للحديث عن معان خطيره؛ حيث ورد هذا الأسلوب تمهيدًا للحديث عن معنى الإيمان بالله وحده، وعن حرمة الدماء والأموال والأعراض، وعن سيادة النبيﷺ للناس جميعا يوم القيامة، وعن إساءة أهل الكتاب والرد عليهم بمثل قولهم دون تجاوز، وعن علامات الساعة كطلوع الشمس من مغربها والمسيح الدجال، وعن الإفلاس بالمفهوم النبوي، وعن بُعْد قعر جهنم، وعن جرأة العبد على ربه يوم القيامة.

وتعجبت عند مطالعتي لتلك الأحاديث في سياقاتها من أمرين:

الأول: حكمة النبيﷺ وبلاغة بيانه؛ حيث أورد هذ الأسلوب في مقامات تطلُبُه؛ فوقع البيان من النفوس موقعَه، وأثمر ثمرتَه.

الثاني: أدب الصحابة مع النبيﷺ؛ حيث رجعوا العلمَ في كثير من السياقات التي ورد فيها هذا الأسلوب إلى الله والرسول مع وضوح الجواب والعلم به، وقد فتح عليهم هذا الأدب بابًا واسعًا من أبواب العلم، وكذا شأن الأدب مع صاحبه.

ولعل هذا الشعور هو الدافع الأول للكتابة في هذا الموضوع، وقد تعانقت معه دوافع أخرى منها:

- شدة الرغبة في دراسة البيان النبوي؛ ذلكم البيان "الذي ألقى الله عليه المحبة، وغشاه بالقبول وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الأفهام، وقلة عدد الكلام"(١)
- دراسة هذا الأسلوب في مواضعه التي ورد فيها في الصحيحين؛ للوقوف على أسرار التعبير به.
- بيان حكمتهﷺ؛ حيث اختار من الأساليب ما يتطابق مع حال المخاطب، وهيأه للحديث، ومَهّد له؛ حتى يستقرَ الكلام في نفسه، ولا يحتاجَ إلى تكراره وإعادته.

واعتمدت في هذه الدراسة على المنهج التحليلي؛ حيث تتبعت المواضع التي ورد فيها هذا الأسلوب، وحللته للوقوف على أسراره ومراميه، وجدير بالذكر هنا أنني عُنيت في هذه الدراسة بالاستفهام الصادر من النبيﷺ، وأخرجتُ منها ما ورد في الصحيحين من استفهامات صدرت من بعض أصحابه.

(١) البيان والتبيين، للجاحظ، ١٣/٢، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ

واقتضت طبيعة الدراسة أن تكون في مقدمة، وتمهيد، وسبعة مقامات، وخاتمة، وفهرس للمصادر، والمراجع، وآخر للموضوعات.

وقد بينت في المقدمة أهمية الموضوع، ودوافع اختياره، وخطة البحث، والمنهج الذي اتبعه الباحث.

وتحدّثت في التمهيد عن دلالة أسلوب الاستفهام على التهيئة للمعنى.

ثم قسمت الدراسة على النحو الآتي[1]:

المقام الأول: التهيئة للحديث عن معنى الإيمان بالله وحده

المقام الثاني: التهيئة للحديث عن عداوة أهل الكتاب وكيفية التعامل معهم

المقام الثالث: التهيئة للحديث عن كفر من قال (مُطرنا بالنوء)

المقام الرابع: التهيئة للحديث عن حرمة الدماء والأموال والأعراض

المقام الخامس: التهيئة للحديث عن المفلس

المقام السادس: التهيئة للحديث عن بعض علامات الساعة وبعض أحوال الدار الآخرة

(١) جاءت الدراسة مُرتبة على هذا النحو؛ لأن الدينَ أنفسُ ما في الحياة، وحفظه أسمى الغايات؛ لذا قدّمتُ ما يتعلّق به؛ فجعلت المقام الأول للحديث عن الإيمان بالله وحده، وجعلت المقام الثاني للحديث عن عداوة أهل الكتاب؛ لأن عداوتهم للمؤمنين بسبب إيمانهم، وجعلت المقام الثالث عن كفر من اعتقد في الأنواء؛ لتعلّقه بالإيمان _أيضًا_ لأن الاعتقاد في الأنواء من نواقض الإيمان، والتنبيه على هذا المعنى دعوة لحفظ الإيمان، وجعلت المقام الرابع للحديث عن حرمة الدماء والأموال والأعراض؛ لأنها تأتي بعد الدين في المرتبة، وحفظها واجب بعد حفظ الدين، وجعلت المقام الخامس عن معنى الإفلاس؛ لأن الاعتداء على الدماء والأموال والأعراض من أسبابه؛ فقدمت السبب على المسبب، وجعلت المقام السادس للحديث عن بعض علامات الساعة وبعض أحوال الدار الآخرة؛ لتأخر أحوال الآخرة، وجعلت المقام السابع للحديث عن فضل النبيﷺ على الخلق كلهم يوم القيامة؛ ليكون خير ختام، ولأن الحديث فيه عن مظاهر فضلهﷺ في الآخرة.

المقام السابع: التهيئة للحديث عن فضل النبيﷺ على الخلق كلهم يوم القيامة

وبعد، فهذا البحث قد بذلت فيه وسعى، واجتهدت فيه قدر طاقتي، فإن وفّقت فيه فذاك فضل ربي، وإن كانت الأخرى؛ فالله أسأل أن يغفر الخطأ، ويتجاوز عن الزلل، إنه هو الغفور الرحيم.

سبحانك ربي لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك

كتبه

الفقير إلى عفو ربه

كارم مسعود الفقي

التمهيد

لا ريب أن مراد المتكلم من كلامه أن يصل معناه إلى ذهن المخاطب، وكلما زاد خطر المعنى زاد حرص المتكلم على وصوله إلى ذهن المخاطب واضحًا جليًّا لا لبس فيه ولا غموض، والمتكلم يتخذ لذلك سبلًا متعددة؛ منها التهيئة للمعنى قبل إلقائه؛ حتى ينتبه له المخاطب؛ فيُحسن استقباله.

وسبل التهيئة للمعنى كثيرة؛ منها الاستفهام، بل هو من أهمها، وقد أشار الإمام عبد القاهر الجرجاني إلى أثر الاستفهام في التهيئة للمعنى في معرض حديثه عن الاستفهام الإنكاري؛ فقال: "واعلمْ أنَّا وإنّ كُنَّا نفسر "الاستفهامَ" في مثلِ هذا بالإنكارِ، فإنَّ الذي هو مَحْضُ المعنى: أنَّه لينتبهَ السامعُ حتى يرجعَ إلى نفسِه فيخجلَ ويرتدعَ ويَعْيَى بالجواب"(١)؛ والإمام في هذا النص لا يقرر _فقط_ أن وظيفةَ الاستفهام الإنكاري تنبيهُ السامع حتى يرجع إلى نفسه، بل يجعل ذلك محْضَ المعنى، وكأنه لا معنى سواه.

والحق أن تنبيه السامع وتهيئته لتلقي المعنى ليس لازمًا من لوازم المعنى في الاستفهام الإنكاري فحسب، بل هو من لوازم الاستفهام في غالب صوره، بل يمكن أن يقال: إنه الغرض الأصيل من إيراد الاستفهام؛ فـ"الاستفهام الذي نفسره بهذه المعاني (الإنكار والتقرير وغير ذلك من المعاني) لا يُراد به عند التحقيق إلا محض التنبيه، أعنى الإيقاظ وإثارة حركة الفكر وانبعاث الحِسّ حتى يكون مستوفزًا؛ ليلتفت بهذا الحضور الواعي إلى السياق؛ فيستوعبه بخفاياه ودقائقِ همسه وكُلِّ حواشيه فيلتقط المراد"(٢).

---

(١) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص: ١١٩، قرأه وعلّق عليه: محمود شاكر، دار المدني بجدة، ط٣، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

(٢) دلالات التراكيب دراسة بلاغية، د/ محمد أبو موسى، ص: ٢٤٥، مكتبة وهبة، ط٤، القاهرة، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

والدارس لأساليب الاستفهام ينبغي عليه أن يدرسها واضعًا نصب عينيه ذلك الأصل: أن تنبيه السامع محض المعنى، وأن ما عدا ذلك من معانٍ يتبعه، وعلى الدارس أن يَجِدَّ في التقاط المراد، وحسبه هذا التنبيه، وهذا ما قرره الإمام عبد القاهر.(١)

ومن أساليب الاستفهام التي ظهر فيها هذا المعنى واضحًا جليًّا، الاستفهام عن الدراية: (أتدرون...؟ هل تدرون...؟) وسأدرس هذا الأسلوب في كلام النبيﷺ الوارد في الصحيحين محاولًا الكشف عن دلالته على هذا المعنى.

(١) ينظر: دلالات التراكيب: ٢٤٥، ٢٤٦.

المقام الأول:

التهيئة للحديث عن معنى الإيمان بالله وحده

عَنْ أَبِي جَمْرَةَ، قَالَ: كُنْتُ أَقْعُدُ مَعَ ابْنِ عَبَّاسٍ يُجْلِسُنِي عَلَى سَرِيرِهِ فَقَالَ: أَقِمْ عِنْدِي حَتَّى أَجْعَلَ لَكَ سَهْمًا مِنْ مَالِي فَأَقَمْتُ مَعَهُ شَهْرَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ وَفْدَ عَبْدِ القَيْسِ لَمَّا أَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنِ القَوْمُ؟ – أَوْ مَنِ الوَفْدُ؟ –» قَالُوا: رَبِيعَةُ. قَالَ: «مَرْحَبًا بِالقَوْمِ، أَوْ بِالوَفْدِ، غَيْرَ خَزَايَا وَلاَ نَدَامَى»، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا لاَ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيكَ إِلَّا فِي الشَّهْرِ الحَرَامِ، وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكَ هَذَا الحَيُّ مِنْ كُفَّارِ مُضَرَ، فَمُرْنَا بِأَمْرٍ فَصْلٍ، نُخْبِرْ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا، وَنَدْخُلْ بِهِ الجَنَّةَ، وَسَأَلُوهُ عَنِ الأَشْرِبَةِ: فَأَمَرَهُمْ بِأَرْبَعٍ، وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ، أَمَرَهُمْ: بِالإِيمَانِ بِاللَّهِ وَحْدَهُ، قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِاللَّهِ وَحْدَهُ» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامُ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ، وَأَنْ تُعْطُوا مِنَ المَغْنَمِ الخُمُسَ» وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنِ الحَنْتَمِ وَالدُّبَّاءِ وَالنَّقِيرِ وَالمُزَفَّتِ "، وَرُبَّمَا قَالَ: «المُقَيَّرِ» وَقَالَ: «احْفَظُوهُنَّ وَأَخْبِرُوا بِهِنَّ مَنْ وَرَاءَكُمْ»[1]

(١) صحيح البخاري، بَابٌ: أَدَاءُ الخُمُسِ مِنَ الإِيمَانِ، ١/ ٢٠، حديث رقم: ٥٣، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ، ورواه البخاري في مواضع أخرى: في باب: تَحْرِيضِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفْدَ عَبْدِ القَيْسِ عَلَى أَنْ يَحْفَظُوا الإِيمَانَ وَالعِلْمَ، وَيُخْبِرُوا مَنْ وَرَاءَهُمْ، ١/ ٢٩، حديث رقم: ٨٧، ولكن بلفظ: "هَلْ تَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِاللَّهِ وَحْدَهُ؟"، وفي باب: وفد عبد القيس، ٥/ ١٦٨، حديث رقم: ٤٣٦٨، وفي باب: وصاة النبي وفود العرب أن يبلغوا من وراءهم، ٩/ ٩٠، حديث رقم: ٧٢٦٦، وفي باب: قول الله _تعالى_: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) [الصافات: ٩٦]، ٩/ ١٦١، حديث رقم: ٧٥٥٦، ورواه مسلم أيضا في صحيحه بلفظ: "هَلْ تَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِاللَّهِ؟" بَاب الْأَمْرِ بِالْإِيمَانِ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَشَرَائِعِ الدِّينِ، وَالدُّعَاءِ إِلَيْهِ، ١/ ٤٧، حديث رقم: ٢٤، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

هذا الحديث بيان للقاء النبيﷺ بوفد عبد القيس، وقد رحّبﷺ بهم أشد الترحيب، وكان بينهم وبينهﷺ حي من كفار مُضَر، يصدونهم عن الوصول إليهﷺ إلا في الشهر الحرام؛ فسألوه أن يأمرهم بأمر فصل، يخبرون به من وراءهم، ويدخلون به الجنة، وسألوه عن الأشربة؛ فأمرهم بأربعٍ[١] ونهاهم عن أربعٍ.

ومحل النظر في هذا الحديث إلى جملة الاستفهام، وإلى أثرها في التهيئة للمعنى حتى يستقبله المخاطب كما أراد المتكلم، وذلك يقتضي النظر في عدة أمور:

<u>الأمر الأول:</u> حال المخاطب:

وفد عبد القيس هم المخاطبون بهذا الاستفهام، وقد تقرر عندهم أن الإيمان بالله وحده يقتضي أن يشهدوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ؛ ولذلك أتوا إليهﷺ[٢] مُقرَّين له بالرسالة، داعين له بما يدل على إقرارهم بذلك: **(يا رسول الله)**، حريصين على تعلُّم ما ينفعهم **(فَمُرْنَا بِأَمْرٍ فَصْلٍ)**، والنبيﷺ يعلم ذلك

(١) عند النظر في الحديث يتبين أنهﷺ أمرهم بخمسٍ: الإيمان بالله وحده، وَإِقَام الصَّلاَةِ، وَإِيتَاء الزَّكَاةِ، وَصِيَام رَمَضَانَ، وَأَنْ يعْطُوا مِنَ المَغْنَمِ الخُمُسَ، وأجاب بعض العلماء عن هذا الإشكال: بأنه أمرهم بالأربع التي وعدهم، ثم زادهم خامسة، وهي: أداء الخمس؛ لأنهم كانوا أهل جهاد لمجاورتهم كفار مضر، ويكون قوله: ("وَأَنْ تُعْطُوا مِنَ المَغْنَمِ الخُمُسَ"). معطوفًا على أربع، أو أن أول الأربع إقام الصلاة، وذكر كلمة التوحيد؛ لأنها الأساس، وقد رواه البخاري في كتاب: الأدب وفيه: "أقيموا الصلاة" إلى آخره، وليس فيه ذكر الشهادة، وفي بعض طرقه حذف الصوم. ينظر: التوضيح لشرح الجامع الصحيح، ٣/ ٢١٦، لابن الملقن، تحقيق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، دار النوادر، ط١، دمشق – سوريا، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م.

(٢) ينظر: شَرْحُ صَحِيح مُسْلِمِ المُسَمَّى إِكمَالُ المُعْلِمِ بفَوَائِدِ مُسْلِم، للقاضي عياض، ١/ ٢٢٩، تحقيق: د/ يحْيَى إِسْمَاعِيل، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر.

منهم؛ لذا فالاستفهام عن درايتهم بالإيمان بالله وحده ليس على حقيقته، وإنما أريد به تهيئة النفوس حتى يثبت المعنى فيها.

الأمر الثاني: سر التعبير بهذا الاستفهام:

تبيّن مما سبق أن الاستفهام هنا ليس على حقيقته؛ إذ المخاطبون عالمون بالجواب، والمتكلم عالم بعلمهم، وإنما لجأ المتكلمﷺ إليه تهيئة للنفوس، وإشعارًا بخطر هذا الأمر؛ إذ الإيمان بالله وحده وما يقتضيه هذا الإيمان من الإقرار لله بالوحدانية ولرسوله بالرسالة هو عمود الدين وأساسه الذي لا يقوم إلا به، وما بعده مبني عليه.

ولذا لم يتكرر هذا السؤال مع الأوامر الأخرى؛ فلم يقل لهم النبيﷺ: أتدرون ما الصلاة...أتدرون ما الزكاة... أتدرون ما الصيام...مع اشتمال تلك الأمور على كثير من التفاصيل واحتياج المسلم إلى معرفة أحكامها لا سيما من دخل في الإسلام حديثًا.

الأمر الثالث: جواب الوفد:

في الجواب: **(اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ)** تظهر حكمة الوفد، وينكشف تأدبهم مع رسول اللهﷺ؛ إذ جاءوا مؤمنين عالمين بما يقتضيه الإيمان من الإقرار لله بالوحدانية ولرسوله بالرسالة، ومع ذلك رجعوا العلم إلى الله ورسوله تأدبًا، وطلبًا للعلم، واستزادةً منه.

الأمر الرابع: المسئول عنه هنا (الدراية)؛ لوقوعها بعد الهمزة، وهي في لسان العرب: العلم(١)، وإيثار التعبير بها لأنها أنسب للمقام؛ إذ الدراية تعني الفهم، وهي قد تكون مأخوذة من دَرَى؛ إذا خَتَل الصيد (خدعه)، واستتر له،

(١) ينظر: اللسان: (دري).

وتربص به؛ ليمسكه[١]؛ "فإن كانت مأخوذة من ذاك فهو يجري مجرى ما يفطن الانسان له من المعرفة التي تنالُ غيرَه؛ فصار ذلك كالختل منه للأشياء...(وكذلك) الدِّرَايَة علم يشْتَمل على الْمَعْلُوم من جَمِيع وجوهه وَذَلِكَ أَن الفِعالة للاشتمال مثل الْعِصَابَة والعمامة والقلادة وَلذَلِك جَاءَ أَكثر أَسمَاء الصناعات على فِعاله نَحْو: القِصارة[٢]، والخياطة، وَمثل ذَلِك الْعبارَة؛ لاشتمالها على مَا فِيهَا؛ فالدراية تفِيد مَا لَا يُفيده الْعلم من هَذَا الوجه، والفِعالة أَيْضا تكون للاستيلاء مثل: الخلَافَة، والإمارة؛ فَيجوز أَن تكون بِمَعْنى الِاسْتِيلَاء؛ فتفارق الْعلم من هَذِه الْجِهَة"[٣]؛ لذا فالاستفهام عن الدراية ليس استفهامًا عن مجرد العلم، وإنما هو استفهام عن الفهمِ وإدراكِ كُنه الشيء، والإحاطة به.

الأمر الخامس:

الهمزة صالحة للتصور والتصديق، وهي هنا للتصديق، وكان المفترض أن يكون الجواب: لا ندري، وفي جوابهم: (اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ) إشارة إلى هذا المعنى؛ وكأنهم قالوا: نحن لا نعلم، والله ورسوله يعلم، وقد جاء الاستفهام في رواية أخرى بـ (هل) التي للتصديق فحسب.

الأمر السادس:

سألهم النبيﷺ عن الدراية؛ فقال: أتدرون...فعدلوا في الجواب عن التعبير بلفظ الدراية وعبّروا بـ (العلم)، ولو جاء الكلام على أصله، لقالوا: الله ورسوله

(١) ينظر: اللسان: (ختل)، والفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري، ص: ٩٢، حققه وعلق عليه/ محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة.

(٢) قَصَرَ الثوبَ قِصارَةً: حَوَّرَه ودَقَّهُ، والقَصَّارُ والمُقَصِّرُ: المُحَوِّرُ لِلثِّيَابِ لأَنه يَدُقُّها بالقَصَرَةِ الَّتِي هِيَ القِطْعَة مِنَ الْخَشَبِ، وَحِرْفَتُهُ القِصارَةُ. ينظر: اللسان: (قصر).

(٣) الفروق اللغوية: ٩٢.

أدرى، وفي العدول عن هذا اللفظ تنزيه لله ﷻ ووصف له بما وصف به نفسه؛ إذ وصف نفسه بالعلم، ولم يصفها بالدراية.

وبعض العلماء جعل الدراية من دَرَى؛ إذا خَتَل الصيد، وفي هذا معنى المخادعة، والله ﷻ مُنزه عن ذلك، وجعل أبو علي _رحمه الله_ الدراية مثل العلم، وأجازها على الله ﷻ واحتج بقول الشاعر: لَاهُمَّ لَا أَدْرِي وَأَنْتَ الدَّارِي[1].

(١) ينظر: الفروق اللغوية: ٩٢.

المقام الثاني:

التهيئة للحديث عن عداوة أهل الكتاب وكيفية التعامل معهم

عَنْ هِشَامِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ، يَقُولُ: مَرَّ يَهُودِيٌّ بِرَسُولِ اللَّـهِﷺ فَقَالَ: السَّامُ عَلَيْكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّـهِﷺ: «وَعَلَيْكَ» فَقَالَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ: " أَتَدْرُونَ مَا يَقُولُ؟ قَالَ: السَّامُ عَلَيْكَ" قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلاَ نَقْتُلُهُ؟ قَالَ: " لاَ، إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أَهْلُ الكِتَابِ، فَقُولُوا: وَعَلَيْكُمْ"(١)

عداوة أهل الكتاب _وخاصة اليهود_ للنبيﷺ وللمؤمنين أصيلة؛ قَالَ تَعَالَىٰ:﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ﴾(٢)، **وقال عز من قائل:** ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ﴾(٣)، وقد ظهرت عداوتهم في هذا الموقف جلية؛ لذا أراد النبيﷺ أن ينبه المسلمين إلى تلك العداوة الكامنة في الصدور، وأن يرشدهم إلى كيفية التعامل معهم؛ لذا فالجملة الأم في هذا الحديث "**إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أَهْلُ الكِتَابِ، فَقُولُوا: وَعَلَيْكُمْ**"، أي ردوا عليهم قولهم ودعاءهم.

ويُلحظ في هذا الحديث أن الموقف انتهي برد النبيﷺ على اليهودي بأوجز ردٍّ: (وعليك)، ثم إن النبيﷺ أراد أن ينبه أصحابه لهذا المعنى؛ فسألهم أتدرون ما يقول؟ ولم ينتظر جوابهم؛ فقال: **قَالَ: السَّامُ عَلَيْكَ**" وتلك الإجابةُ السريعةُ وعدمُ انتظار الرد يدلان على أن السؤال لم يكن على حقيقته، وأن النبيﷺ لم يسألهم ليقولوا: (قال كذا)؛ وإنما سألهم ليهيئ نفوسهم لتلقي هذا الحكم، وليرشدهم إلى كيفية التعامل مع هذا النوع الخبيث من الأعداء.

---

(١) البخاري: ٩/ ١٥، رقم ٦٩٢٦.

(٢) سورة المائدة: ٨٢.

(٣) سورة البقرة: ١٢٠

المقام الثالث:

التهيئة للحديث عن كفر[1] من قال (مُطرنا بالنوء)

عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ ﷺ، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِﷺ عَامَ الحُدَيْبِيَةِ، فَأَصَابَنَا مَطَرٌ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَصَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِﷺ الصُّبْحَ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَقَالَ: «أَتَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟». قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَقَالَ: " قَالَ اللَّهُ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِي، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَبِرِزْقِ اللَّهِ وَبِفَضْلِ اللَّهِ، فَهُوَ مُؤْمِنٌ بِي، كَافِرٌ بِالكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَجْمِ كَذَا، فَهُوَ مُؤْمِنٌ بِالكَوْكَبِ كَافِرٌ بِي"[2]

اللهﷻ هو المدبر للأمور كلها، والفضل كله بيده، ينزل الغيث برحمته، ويمنعه بمشيئته، ولا علاقة للأنواء بنزول المطر، وقد كان بعض الناس يعتقدون في الأنواء، وأنها تُنزل المطر؛ لذا نبّه النبيﷺ إلى هذا المعنى، وبيّن أن لاعتقاد في الأنواء من الكفر؛ لذا فالمعنى الذي يدور هذا الحديث في فلكه هو: بيان كفر من اعتقد في الأنواء، وأنها تُنزل المطر.

---

(١) قال العلماء: "إذا اعتقد المرء أنّ المطر مَنْ الأنواء وأنّها فاعلة له من دون الله فهو كافرٌ، ومَنِ اعتقدَ أنّها فاعلةٌ لكن بما جعلَ اللهُ فيها فهو أيضًا كافرٌ؛ لأنّه لا يصحّ أنّ يكون الخَلْقُ والأَمْرُ إلّا لله، كما قال تعالى: {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ} (الأعراف: ٥٤) ومن انتظرَها وتَوَكَّفَ (توقع) المطر منها على أنّها عادة أجراها اللهُ فلا شيءَ عليه، فإنّ الله قد أَجْرَى العوائد في السَّحَاب والرِّيَاح والأمطار بمعاني تَرَتَّبت في الخِلْقَةِ، وجاءت على نسق في العادة." المسالِك في شرح مُوَطَّأ مالك، للقاضي ابن العربي المالكي، ٣/ ٣٢٨، قرأه وعلّق عليه: محمد بن الحسين السُّليماني وعائشة بنت الحسين السُّليماني، قدَّم له: يوسف القَرَضَاوي، دَار الغَرب الإسلامي، ط١، ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م.

(٢) البخاري: ٥/ ١٢١، رقم ٤١٤٧.

والمخاطبون بهذا الخطاب هم الصحابة _رضوان الله عليهم_ وهم أكمل الناس إيمانًا، وأعلم الناس بعد النبيﷺ بما يجب إثباته للهﷻ من عظيم القدرة، ولكنهم مع ذلك قريبو عهد بجاهلية؛ لذا فالاهتمام بهذا المعنى عن طريق التقدمة له بالاستفهام، وتهيئة القلوب لتتلقاه، قد يكون مراعاةً لحال المخاطب؛ حتى يُستأصل الاعتقاد في الأنواء من القلوب غاية الاستئصال؛ فلا تبقى له بقية، وقد يكون للمناسبة؛ إذ المعنى المقدَّمُ له من المعاني العظيمة؛ لتعلقه بالإيمان بقدرة اللهﷻ؛ إذ لا يقدر على إنزال المطر غيره، وقد يكون للغرضين معًا.

وهذا المعنى الذي أراد النبيﷺ بيانه من الأهمية بمكان، وذلك لتعلقه بالإيمان؛ فالأنواء لا قدرة لها على إنزال المطر؛ إذ المطر إنما ينزل بأمر الله وقدرته: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾(١)، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾(٢)؛ لذا فإن التعبير بالاستفهام: "أَتَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟" قد وقع موقعه، وهيأ النفوس لتلقي هذا المعنى.

(١) الأعراف: ٢٥٤

(٢) الشورى: ٢٨

المقام الرابع:

التهيئة للحديث عن حرمة الدماء والأموال والأعراض

"**عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ بِمِنًى: «أَتَدْرُونَ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟»، قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَقَالَ: «فَإِنَّ هَذَا يَوْمٌ حَرَامٌ، أَفَتَدْرُونَ أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟»، قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «بَلَدٌ حَرَامٌ، أَفَتَدْرُونَ أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟»، قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: " شَهْرٌ حَرَامٌ، قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ دِمَاءَكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ، وَأَعْرَاضَكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا "، وَقَالَ هِشَامُ بْنُ الغَازِ: أَخْبَرَنِي نَافِعٌ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَقَفَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ النَّحْرِ بَيْنَ الجَمَرَاتِ فِي الحَجَّةِ الَّتِي حَجَّ بِهَذَا، وَقَالَ: «هَذَا يَوْمُ الحَجِّ الأَكْبَرِ» فَطَفِقَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ» وَوَدَّعَ النَّاسَ، فَقَالُوا: هَذِهِ حَجَّةُ الوَدَاعِ.**"[1]

كان العرب قبل الإسلام يُريقون الدماء لأتفه الأسباب، وتنشأ الحروب بينهم، وتستمر لأعوام؛ من أجل فرس سبقتْ أختَها كما في حرب داحس والغبراء[2]، أو من أجل ناقة رَعَتْ في حمى سيّد من الأسياد كما في حرب البسوس[3]، ومع ذلك كانوا يعظمون الشهر الحرام والبلد الحرام، فلا يُريقون فيهما دما، ولا يعتدون فيهما على أحد، وقد كان الرجل يَلْقى قاتل أبيه أو أخيه في الشهر الحرام أو البلد الحرام؛ فلا يتعرّض له تعظيمًا للشهر الحرام والبلد الحرام، مع قدرته على إدراك رغبته والأخذ بثأره[4]، وقد فَطِن النبيﷺ إلى هذا المعنى،

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، في بَاب الخُطْبَةِ أَيَّامَ مِنًى، ١٧٧/٢، حديث رقم: ١٧٤٢.

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير، ٣/ ١٨٩، تحقيق/ علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

(٣) العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي، ٣/ ١٠، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤٠٤هـ.

(٤) السابق: ١/ ٢٧٧.

وأدرك مدى تعظيمهم للشهر الحرام والبلد الحرام، وبيّن لهم أن حرمة الدماء والأموال والأعراض كحرمة الشهر الحرام والبلد الحرام.

والمعنى المراد (المعنى الأم) في هذا الحديث تأكيد حرمة الدماء والأموال والأعراض، وهو معنى خطير؛ لذلك لم يُلقه النبيﷺ إلى القوم مباشرة، بل مهّد له، وهيّأ نفوسهم لتلقيه؛ فسألهم عن اليوم الذي هم فيه: أي يوم هذا؟ ثم عن الشهر الذي هم فيه: أي شهر هذا، ثم عن البلد الذي هم فيه: أي بلد هذا؟ وقد استقر في نفوسهم تعظيم الشهر الحرام والبلد الحرام؛ ليصل بهم إلى المعنى الذي يريد تأكيده في نفوسهم، وهو أن حرمة الدماء والأموال والاعراض كحرمة اليوم الحرام والشهر الحرام والبلد الحرام.

والمخاطبون بهذا الاستفهام هم المسلمون الذين حضروا مع النبيﷺ حجة الوداع من المسلمين الأوائل ومن الأفواج التي دخلت في دين الله بعد فتح مكة، والنبيﷺ يعلم أن اللهﷻ قد أكمل الدين، وأتم النعمة، وأنهﷺ قد لا يلقى الناس بعد عامهم هذا؛ لذا أكّد هذا المعنى عن طريق التهيئة له بالاستفهامات التي تقدمته.

والاستفهامات المتتابعة: (أَتَدْرُونَ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟ أَفَتَدْرُونَ أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟ أَفَتَدْرُونَ أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟) للتقرير، ولا ينقُض هذا المعنى جوابُهم: الله ورسوله أعلم؛ إذ أقروا بالجواب في بعض الروايات فقالوا: يَوْمٌ حَرَامٌ، بَلَدٌ حَرَامٌ، شَهْرٌ حَرَامٌ[1]، وكأنهﷺ أراد منهم أن يُقروا بدرايتهم باليوم والشهر والبلد، وهم مُقرون

(١) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ النَّحْرِ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟»، قَالُوا: يَوْمٌ حَرَامٌ، قَالَ: «فَأَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟»، قَالُوا: بَلَدٌ حَرَامٌ، قَالَ: «فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟»، قَالُوا: شَهْرٌ حَرَامٌ "، قَالَ: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا»، فَأَعَادَهَا مِرَارًا، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: " اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ، اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ – قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ =

حقًّا، ولكنهم عدلوا إلى هذا الجواب تأدبًا، وتحرُّزًا عن التقدم بين يدي الله ورسولهﷺ، وتوقُّفًا فيما لا يُعلم الغرض من السؤال عنه(١)؛ ولذلك عندما عدلوا إليه، أجاب النبيﷺ بما كان يُفترض أن يُجيبوا به فقال: فَإِنَّ هَذَا يَوْمٌ حَرَامٌ... بَلَدٌ حَرَامٌ... شَهْرٌ حَرَامٌ.

والفرق كبير بين التعبيرِ بالخبر مباشرة: (إن هذا اليوم يوم حرام، وإن هذا البلد بلد حرام، وإن هذا الشهر شهر حرام، وإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ دِمَاءَكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ، وَأَعْرَاضَكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا)، والعدولِ إلى التعبير بالإنشاء (الاستفهام التقريري)؛ إذ العبارة الأولى لا تعدو أن تكون تذكيرًا للمخاطب بحرمة اليوم والبلد والشهر؛ ليترتب على ذلك تشبيه حرمة الدماء والأموال والأعراض بتلك الحرمة، أمّا العبارة الثانية ففيها حركة، وتشويق إلى عُقبى الكلام، وإشراك للمخاطب في تصوّر المعنى؛ فيصدر هو الحكم بالإيجاب وإن لم ينطق به(٢).

ولعل المقصودَ من هذه لاستفهامات إثارةُ النفوس؛ فالمسئول عنه معلوم للجميع؛ ولا يمكن بحال من الأحوال أن يشك المسئول في الجواب، ولكنها عندما صدرت من النبيﷺ أثارت شيئًا في النفوس، وحركت بواعث الفكر بداخلها: لم هذه الاستفهامات؟ وهل لها إجابات غير التي نعرفها؟ وما الأحكام المترتبة على

=

عَنْهُمَا: فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهَا لَوَصِيَّتُهُ إِلَى أُمَّتِهِ، فَلْيُبْلِغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ، لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ" البخاري: ٢/ ١٧٦، حديث رقم: ١٧٣٩.

(١) ينظر: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، القسطلاني، ٣/ ٢٤١، المطبعة الكبرى الأميرية، ط٧، مصر، ١٣٢٣هـ.

(٢) ينظر: االتفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم، د/ عبد العظيم المطعني، ١/ ٩٣، مكتبة وهبة، ط٣، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

تلك الإجابات؟...وقد أراد النبيﷺ أن يزيد تلك الإثارة؛ فكان _كما ورد في بعض الروايات[١]_ يسكت بعد قولهم: (الله ورسوله أعلم)؛ حتى يقع في نفوسهم أنه سيسمي اليوم بغير اسمه، وكذلك البلد، والشهر...وقد هيأت تلك الاستثارة النفوس لتلقي هذا المعنى الخطير: المعنى الأم في هذا النص (حرمة الدماء والأموال والأعراض).

وفي تلك الرواية ذاتها يزيد استفهامات (تقريرية) أخرى: أليس يومَ النحر؟...أليس ذو الحجة[٢]؟...أليست بالبلدةِ الحرام)؛ لتزداد بواعث الإثارة في نفوسهم، وما ذلك إلا للتنبيه على خطورة المعنى المراد إثباته، فتتلقاه النفوس على ظمأ؛ فيستقر فيها.

ويؤكِّد ذلك أن بعض الروايات ورد التركيب فيها مُصدّرًا بـ (ألا) الاستفتاحية التي يؤتى بها لتنبيه السامع، وجذبه، وتهيئته لاستقبال المعنى: (ألا تدرون أي يوم هذا)[٣].

(١) البخاري: ٢/ ١٧٦، حديث رقم: ١٧٤١.

(٢) (ذو الحجة): بالرفع خبر ليس، واسمها محذوف تقديره: (هذا الشهر). ينظر: إرشاد الساري: ٣/ ٢٤٢.

(٣) البخاري: ٩/ ٥٠، حديث رقم: ٧٠٧٨.

المقام الخامس:

التهيئة للحديث عن المفلس

أ _المفلس الحقيقي

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»[1]

يظن كثير من الناس بل الناس جميعا أن الإفلاس معناه خلو اليد من الدينار والدرهم بعد وجودهما، وهذا هو المعنى القريب المتعارف، ولكن الإسلام ينظر إلى الإفلاس من زاوية أخرى، فليس الإفلاس في الإسلام، أن تملك الأموال ثم تفقدها، وإنما الإفلاس أن تأتي بالحسنات ثم تؤخذ منك، وهذا هو الإفلاس الحقيقي، ولما كان هذا المعنى دقيقًا غريبًا لا يلتفت إليه الناس، احتاج إلى أن يُنبَّه إليه، وأن تُهيأ النفوس لتتلقاه؛ فجاء الاستفهام: "أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟" ليؤدي هذه الوظيفة.

هذا وقد ورد الاستفهام في بعض الروايات مشتملاً على **(ما)** الموصولة وفي بعضها مشتملا على **(من)** الموصولة، **والتعبير بـ(من)** ظاهر الدلالة، وفي العدول عن التعبير بها إلى التعبير **بـ(ما)** في رواية مسلم إشارة إلى أن المراد هنا **بـ(ما)** الوصف لا الذات، فالحديث عن الإفلاس، لا عن ذات المفلس.

---

(١) مسلم: ٤/ ١٩٩٧، حديث رقم: ٢٥٨١.

والإفلاس ليس معناه انعدام المال، بل فقده بعد أن كان موجودًا، وهذا مما يُورث الحسرة، وهذا المعنى متناسب جدا مع المعنى الذي ذكره النبيﷺ؛ فالمفلس ليس هو من يأتي يوم القيامة بلا حسنات، بل هو من يأتي بحسنات كثيرة، ولكنه يفقدها كلها، بل ربما يزيد الأمر عن هذا؛ فتفنى الحسنات جميعها قبل أن يوفى ما عليه؛ فيُؤخذ من سيئات من ظلهم، فتُطرح عليه، ثم يُطرح في النار، وهو معنى ليس بالهين؛ لذا حرص النبيﷺ أن يُهيئ النفوس لتتلقاه، ويتمكن منها غاية التمكن، فقدم له بهذا الاستفهام: **(أتدرون ما المفلس؟)**.

ب_ التهيئة للحديث عن الغِيبة(١):

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِﷺ قَالَ: "أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ؟" قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: "ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ" قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: "إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ، فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ"(٢)

الغيبة من أعظم أسباب الإفلاس يوم القيامة؛ إذ هي تَعَدٍّ على العرض، ولا سبيل إلى التخلُّص من إثمها إلا بعفو المعتَدى عليه، وأنى للمغتاب ذلك، وهي مشتقة من مادة: (الغين والياء والباء)، واشتقاقها دالٌّ على ذكر الغير في غيبته، ولعل الصحابةﷺ كانوا يظنون أن ذلك ليس على عمومه، وأن الغيبة مختصة بذكر الغير في غيبته بما ليس فيه؛ فإن ذُكر الرجل بما هو فيه؛ فليس ذلك من الغيبة؛ يدل على ذلك قول بعضهم: "**أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟**" فبيّن لهم النبيﷺ أن الغيبة على عمومها، وهي دالّة على ذكر الرجل بما يكره في غيبته سواء أكان فيه هذا الذي ذُكر به، أم لم يكن فيه، لكن الحالة الثانية الجرم فيها أعظم؛ لأن المغتاب قد جمع فيها مع الغيبة الافتراء والكذب؛ لذا فرّق

(١) جعلت هذا المعنى تحت هذا المقام؛ لأن الغيبة من أسباب الإفلاس يوم القيامة.

(٢) مسلم: ٤/ ٢٠٠١، رقم: ٢٥٨٩.

النبيﷺ بين الحاتين؛ فجعل الأولى غيبةً، والثانية بهتانًا...وهذا المعنى من المعاني الخطيرة؛ إذ يترتب على التهاون به ضرر كبير، ولعل بعض الناس يقع في الغيبة ظنًّا منه أنها مقصورة عل الكذب في الوصف، وأن الصدق في الوصف يرفع الإثم؛ فيترتب على ذلك فساد كبير؛ لذلك بيّن النبيﷺ هذا الأمر، ومهّد للحديث عنه بهذا الاستفهام: "**أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ؟**" لتتهيأ النفوس لهذا المعنى؛ فيقع منها موقعًا حسنا؛ فتسارع إلى الطاعة والاستجابة.

المقام السادس:

التهيئة للحديث عن بعض علامات الساعة وبعض أحوال الدار الآخرة

أ- طلوع الشمس من مغربها:

عَنْ أَبِي ذَرٍّ أَنَّ النَّبِيَّﷺ قَالَ يَوْمًا: «أَتَدْرُونَ أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ الشَّمْسُ؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: " إِنَّ هَذِهِ تَجْرِي حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ، فَتَخِرُّ سَاجِدَةً، فَلَا تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُقَالَ لَهَا: ارْتَفِعِي، ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَرْجِعُ فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَطْلِعِهَا، ثُمَّ تَجْرِي حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ، فَتَخِرُّ سَاجِدَةً، وَلَا تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُقَالَ لَهَا: ارْتَفِعِي، ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَرْجِعُ فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَطْلِعِهَا، ثُمَّ تَجْرِي لَا يَسْتَنْكِرُ النَّاسَ مِنْهَا شَيْئًا حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا ذَاكَ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَيُقَالُ لَهَا: ارْتَفِعِي أَصْبِحِي طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِكِ، فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِهَا "، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَتَدْرُونَ مَتَى ذَاكُمْ؟ ذَاكَ حِينَ {لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا}"[(١)]

أراد النبيﷺ أن يخبر الناس عن علامة من علامات الساعة الكبرى، تلك العلامة هي طلوع الشمس من مغربها، وذلك حين تتغير نواميس الكون، وينقلب نظامه، وذلك أن الناس قد اعتادوا أن يروا الكون بهذا النظام الذي خلقه الله عليه؛ فالشمس تشرق من جهة الشرق، وتغرب من جهة الغرب؛ فإذا اختلَّ هذا النظام، دل ذلك على حدوث أمر عظيم، هذا الأمر هو زوال الدنيا، وإقبال الآخرة ، ونظرًا لغرابة هذا الأمر وأهميته مهّد له النبيﷺ بهذا السؤال : "**أَتَدْرُونَ أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ الشَّمْسُ؟**"؛ فالمسئولون يرون الشمس تطلع من جهة الشرق وتغيب من جهة الغرب، ولكنهم لا يعلمون أين تذهب، فسألهم النبيﷺ هذا

(١) مسلم: ١/ ١٣٨، حديث رقم: ١٥٩.

السؤال؛ ليخبرهم عن مكان ذهابها، ثم ينتقل بهم إلى الحديث عن طلوعها من مغربها، وذلك حين يقال لها: "**ارْتَفِعِي أَصْبِحِي طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِكِ**"؛ لذا فالسؤال في بداية الحديث: (أتدرون أين تذهب الشمس؟) كان له أثر عظيم في تهيئة النفوس لتلقى هذا الخير العجيب.

ولما علمت النفوس هذا الخبر، وتيقنت به، تشوّقت إلى معرفة وقت حدوثه، فجاء هذا السؤال من النبيﷺ: "**أَتَدْرُونَ مَتَى ذَاكُمْ؟**" استجابة لتلك الدواعي الكامنة في النفوس، وقد كان الناس ينتظرون أن يُقال: إن ذلك يحدث بعد عدد من السنين قدره كذا، ولكن النبيﷺ عدل عن هذا وأجاب بما ينفعهم فقال: "**ذَاكَ حِينَ {لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا}**"؛ ليحرص الناس على التوبة والعمل الصالح؛ فهذا هو الأنفع لهم.

ب_ المسيح الدجال:

عن فَاطِمَةَ بِنْتَ قَيْسٍ قالت: سَمِعْتُ نِدَاءَ الْمُنَادِي، مُنَادِي رَسُولِ اللهِﷺ يُنَادِي: الصَّلَاةَ جَامِعَةً، فَخَرَجْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَصَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِﷺ فَكُنْتُ فِي صَفِّ النِّسَاءِ الَّتِي تَلِي ظُهُورَ الْقَوْمِ فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللهِﷺ صَلَاتَهُ جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ، وَهُوَ يَضْحَكُ، فَقَالَ: «لِيَلْزَمْ كُلُّ إِنْسَانٍ مُصَلَّاهُ»، ثُمَّ قَالَ: «أَتَدْرُونَ لِمَ جَمَعْتُكُمْ؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: " إِنِّي وَاللهِ مَا جَمَعْتُكُمْ لِرَغْبَةٍ وَلَا لِرَهْبَةٍ، وَلَكِنْ جَمَعْتُكُمْ، لِأَنَّ تَمِيمًا الدَّارِيَّ كَانَ رَجُلًا نَصْرَانِيًّا، فَجَاءَ فَبَايَعَ وَأَسْلَمَ، وَحَدَّثَنِي حَدِيثًا وَافَقَ الَّذِي كُنْتُ أُحَدِّثُكُمْ عَنْ مَسِيحِ الدَّجَّالِ..."[1]

في هذا الحديث يخبر النبيﷺ أن تميمًا الدارى أخبره خبرًا بشأن المسيح الدجال يوافق ما أخبر به النبيﷺ أصحابه، وهو خبر عجيب؛ لذا جمع النبيﷺ الناس، ونادى مناديه: الصلاة جامعة، وقبل أن يقص عليهم خبر تميم الداري،

(١) الحديث بطوله في صحيح مسلم: ٤/ ٢٢٦١، ٢٢٦٢، رقم: ٢٩٤٢.

سألهم هذا السؤال: "**أَتَدْرُونَ لِمَ جَمَعْتُكُمْ؟**"، والمراد من هذا السؤال تهيئة النفوس، والتمهيد لها؛ حتى تتلقى هذا الخبر العجيب، ويستقر في الأذهان.

جـ ـ وجبة حجر رُمى به في النار:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذْ سَمِعَ وَجْبَةً[1]، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "تَدْرُونَ مَا هَذَا؟" قَالَ: قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: "هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا، فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الْآنَ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا"[2]

بينما كان النبي ﷺ جالسا مع أصحابه، إذ سمع صوتا قويًّا، وقد أعلمه ربه أن هذا الصوت ناتج عن ارتطام حجر بقعر جهنم قد أُلقى فيها منذ سبعين سنة، وهذا خبر عجيب دالٌّ على بُعد قعرها؛ حتى إن الحجر ليمكث سبعين سنة حتى يصل إلى قعرها؛ لذا لم يلقِ النبي ﷺ هذا الخبر مباشرة، بل هيأ النفوس، ومهد له قبل أن يلقيه بهذا الاستفهام: "**تَدْرُونَ مَا هَذَا؟**".

وحذف همزة الاستفهام مناسب لهذا المقام غاية المناسبة؛ إذ النبي ﷺ سمع هذا الصوت، وهو يعلم مصدره بالوحي، وكذلك سمعه الجالسون معه بدليل إشارة النبي ﷺ باسم الإشارة (**هَذَا**) في قوله: "**تَدْرُونَ مَا هَذَا؟**" ولكنهم يجهلون مصدره؛ فهم متشوقون لمعرفته، حريصون على هذا العلم، فجاء الحذف مناسبا لما تمتلئ به نفوسهم من هذا الحرص، وكذلك المقام مقام فزع وتخويف من النار وتصوير لشدة أهوالها وبعد قعرها، وذلك يقتضي الحذف أيضًا.

(١) الوجبة: السَّقطة مَعَ الهَدَّة، والمراد هنا: صَوت السُّقُوط. ينظر: اللسان: (وج ب).

(٢) مسلم: ٤/ ٢١٨٤، رقم: ٢٨٤٤.

د_ شهادة الجوارح على صاحبها:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَضَحِكَ، فَقَالَ: "هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟" قَالَ: قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: " مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي، قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا، قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، قَالَ فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ"(١)

أراد النبيﷺ من هذا الحديث أن بين موقفًا من مواقف يوم القيامة؛ حيث تشهد الجوارح على صاحبها بعد طلبه لشهادتها، ويتجرأ العبد على ربه: يقول: **لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي**؛ فيختم الله على فيه، ويُنطق جوارحه؛ فتشهد عليه، وقد بدأ الحديث عن هذا الأمر بضحكة ضحكها النبيﷺ، ثم سأل أصحابه: "**هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟**" فكان هذا السؤال تمهيدًا للحديث عن هذا الأمر وتهيئةً للنفوس حتى تنتبه له.

وقد جاءتْ التهيئةُ بهذا الاستفهام مناسبةً للمقام غاية المناسبة، فلو عدل النبيﷺ عنها، وولج إلى الخبر مباشرة؛ فقال: أضحك من مخاطبة العبد ربه...ما كان البيان بتلك القوة؛ إذ الموقف موقف عجيب؛ فالعبد في موقف الحساب، وقد علم عظمة ربه، وعلم ظلمه وتقصيره، ومع ذلك يُصرّ على حجاج ربه، ويخاطبه بأسلوب منطقي: **يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟** ...ظنًّا منه أن ذلك سينجيه، وأن جوارحه لن تشهد عليه، ومع ذلك يُجيبه ربه، ويحقق له ما أراد إقامةً للحُجة عليه؛ وإظهارًا لعظيم عدلهﷻ الذي أقر به العبد ضمنًا في أول كلامه عن طريق الاستفهام التقريري: **يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟**...فناسبت التهيئة للمعنى بالاستفهام ما في هذا الخبر من عجب.

---

(١) مسلم: ٤/ ٢٢٨٠، رقم: ٢٩٦٩.

المقام السابع:

التهيئة للحديث عن فضل النبيﷺ على الخلق كلهم يوم القيامة

أ_ النبيﷺ سيد الناس يوم القيامة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّـهِﷺ أُتِيَ بِلَحْمٍ فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ فَنَهَشَ مِنْهَا نَهْشَةً، ثُمَّ قَالَ: " أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَلِكَ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمُ البَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ، فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الغَمِّ وَالكَرْبِ مَا لاَ يُطِيقُونَ وَلاَ يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ النَّاسُ: أَلاَ تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ، أَلاَ تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: عَلَيْكُمْ بِآدَمَ... فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي... فَيَأْتُونَ نُوحًا...فَيَقُولُ: ... نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي... فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ...فَيَقُولُ ... نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي فَيَأْتُونَ، مُوسَى ... فَيَقُولُ: ... نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي... فَيَأْتُونَ عِيسَى...فَيَقُولُ عِيسَى: ... نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي... فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتِمُ الأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ العَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا، لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ: أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لاَ حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ البَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الأَبْوَابِ، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي

نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ مَا بَيْنَ المِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الجَنَّةِ، كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَحِمْيَرَ أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى"(١)

السيّد في الدنيا من يسّودُ قومَه بحمايتِهم والدفاعِ عنهم والإحسانِ إليهم، وعلى قدر إحسانِه وكرمِه وشجاعتِه ودفاعِه عمن يسودهم، يكون شرفُه فيهم، وتكون سيادتُه عليهم؛ فإذا أحسن الرجل إلى بطنٍ ساد تلك البطن، وإذا أحسن إلى قبيلة ساد تلك القبيلة، وإذا أحسن إلى أمة ساد تلك الأمة، وإذا أحسن إلى عدد من الأمم سادها جميعًا، وتلك السيادة في الدنيا محدودة بحدود الزمان والمكان؛ فمهما بلغ الرجل من الشرف؛ فإن سيادته قد تكون على جِيله، وقد يمتد أثرها إلى مَن بعده، لكنها لا تكون على مَن قبله، ومهما بلغ الرجل من الشرف؛ فإن سيادته تكون حيث تبلغ سيطرتُه مِن الأماكن دون غيرها...وعلى قدر الخطر الذي يدفعه السيد تكون سيادته؛ فالسيد الذي يدفع خطر قاطع طريق ليس كالسيد الذي يدفع خطر عصابة من قطاع الطرق، وهذا ليس كالذي يدفع خطر جيشٍ، وذاك غير الذي يدفع خطر عدة جيوش...وعلى هذا فالسيادة في حقيقتها ليست سيطرةً وتَمَلُّكًا، وإنما هي درجة يرتفع فيها السيّد على من يسودهم بقدرته على إيصال الخير لهم ودَفع الشر عنهم، أو بتسببه في ذلك.

وبعد تلك المقدمة التي لابد منها، أقول: أخبر النبيﷺ في هذا الحديث أنه يسود الناس جميعًا يوم القيامة؛ فقال: "**أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ**" وهذا خبر عجيب؛ إذ السيادةُ يومَ القيامة، وذلك يقتضي أنه يسود الناس جميعًا من آدمعليه السلام إلى آخر من تقوم عليه الساعة؛ إذ الموقف يضمهم جميعًا، وكذلك الموقف شديد؛ بلغ من الشدة غايتها؛ يدل على ذلك قولهﷺ: "**فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الغَمِّ وَالكَرْبِ مَا لاَ يُطِيقُونَ وَلاَ يَحْتَمِلُونَ**"، والسيادة في هذا الموقف أمر عجيب حقًّا؛

(١) البخاري: ٦/ ٨٤، رقم: ٤٧١٢، ومسلم: ١/ ١٨٤، رقم: ١٩٤، واللفظ للبخاري.

تستحق أن يمهّد النبيﷺ للحديث عن سبب استحقاقه لها، وأن يهيئ النفوس لتلقي هذا الخبر بالاستفهام: "**وَهَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَلِكَ؟**".

وورد هذا الأسلوب بعدة روايات؛ فورد في بعضها: **(هل تدرون بم؟)**[١] وورد في بعضها: **(وهل تدرون بم ذاك؟)**[٢]؛ فاختلفت الروايات في الربط بين جملة الاستفهام والجملة التي قبلها؛ فالجملتان تُرك العطف بينهما في روايةٍ، وذُكرت الواو في روايتين، والفصل بين الجملتين لكمال الانقطاع؛ إذ اختلفتا في الخبرية والإنشائية، وتلك علة لفظية أغفلها بعض أهل التحقيق[٣]؛ لذا وجب النظر إلى ما بينهما من علاقة معنوية، ولعل الفصل هنا راجع إلى كمال الاتصال؛ إذ النبيﷺ قرر في الجملة الأولى أنه سيد الناس يوم القيامة، وهو في الجملة الثانية يسأل عن دراية الحاضرين سبب ذلك؛ ليهيئهم للحديث عنه، وفي ذلك تقرير لما جاء في الأولى من إثبات سيادتهﷺ للناس يوم القيامة؛ فالجملة الثانية نزلت من الأولى منزلة التأكيد المعنوي.

---

(١) البخاري: ٤/ ١٣٤، رقم: ٣٣٤٠.

(٢) مسلم: ١/١٨٤، رقم: ١٩٤.

(٣) اختلف أهل العلم في جواز العطف بين الجملتين المختلفتين خبرًا وإنشاءً، وقد أورد بهاء الدين السبكي هذا الخلاف، ثم قال: "وحاصله أن أهل هذا الفن متفقون على منعه وظاهر كلام النحاة جوازه، ولا خلاف بين الفريقين؛ لأنه عند من جوّزه يجوز لغة ولا يجوز بلاغة"، وفي اتفاق البلاغيين على منع العطف بين الجملتين المختلفتين خبرًا وإنشاءً نظرٌ، ومن أهل التحقيق من لا يعتد باختلافهما، ولا يجعله سببًا للفصل بينهما، ويبحث العلاقة المعنوية بينهما.

ينظر: شروح التلخيص: ٣/ ٢٦، ٢٧، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ودلالات التراكيب: ٣٢٠، ٣٢١.

والواو في الروايتين اللتين ذُكرتْ فيهما للاستئناف، والتعبير بها مناسب للمقام غاية المناسبة؛ إذ يلجأ إليها المتكلم حين يحتاج الكلام إلى مزيد عناية؛ لذا عبّر بها النبيﷺ اشعارًا بأهمية الكلام المستأنف، وجذبًا للسامع، ولفتًا لانتباهه.

ويُلحظ أن الروايتين اللتين ذُكرت الواو فيهما: **(وَهَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَلِكَ؟ وهل تدرون بم ذاك؟)** ذُكر فيهما اسم الإشارة الدال على البُعد، أي: وهل تدرون سببَ تلك النعمة العظيمة التي منَّ اللهﷻ بها عليّ؟ ولعل الجمع بين الواو واسم الإشارة راجع للمناسبة بين مدلوليهما؛ فالتعبير بالواو الاستئنافية دالّ على مزيد العناية والتعبير باسم الإشارة دال على التعظيم، ولا يخفى ما بين المعنيين (العناية والتعظيم) من مناسبة.

ثم بيّنﷺ سبب استحقاقه للسيادة؛ إذ يرجع سبب ذلك إلى ما خصّه الله به من تشفيعه وقبول شفاعته، وذلك حين يُحجم ألو العزم من الرسل عن الشفاعة خوفًا من غضب الله؛ فقد غضبﷻ في هذا اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله؛ فالنبيﷺ ساد الناس جميعًا في هذا اليوم؛ إذ فضّله ربهﷻ على المُفضّلين من الرسل (أولي العزم)، وأعطاه ما لم يعطهم، وفضّله على غيرهم؛ إذ جعله سببًا في التخفيف عنهم بشفاعته فيهم.

ب_ إعطاؤهﷺ نهر الكوثر:

"عن أَنَسٍ، قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللهِﷺ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهُرِنَا إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا، فَقُلْنَا: مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ» فَقَرَأَ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ. فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ. إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ} ثُمَّ قَالَ: "أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟" فَقُلْنَا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: " فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ

أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ، فَيُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ، فَأَقُولُ: رَبِّ، إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي فَيَقُولُ: مَا تَدْرِي مَا أَحْدَثَتْ بَعْدَكَ"(١)

يوم القيامة يوم شديد الهول، يبلغ الناس فيه من الكرب والغم ما لا يطيقون، ومن أشد ما ينزل بهم في هذا اليوم شدة العطش؛ فهم أحوج إلى الماء من أي شيء آخر، وقد مَنَّ اللهﷻ على المؤمنين في هذا اليوم بأن أعطى نبي الرحمةﷺ نهر الكوثر؛ ليكون وردًا يَرِدُه المؤمنون يوم القيامة؛ فيرتوون، ويذهب ظمأهم، وقد أخبر النبيﷺ عن هذا الأمر، وكان ذلك حين أغفى إغفاءةً نزل عليه الوحي فيها، ثم رفع النبيﷺ رأسه متبسمًا؛ للدلالة على رضاهﷺ وفرحه بتلك النعمة، وما كان للجالسين أن يروا ذلك من النبيﷺ ثم لا يسألوا عن سببه؛ فأجابهم النبيﷺ أنه قد أُنزلت عليه سورة الكوثر، والكوثر من أمور الآخرة التي لا يُعرف كُنهُها إلا بوحي؛ فاقتضى المقام أن يُبيّنﷺ المراد بالكوثر بعد تلاوة الآيات الواردة فيها، وكان من الممكن أن يبيّنﷺ هذا المعنى مباشرةً؛ فيقول بعد تلاوة الآيات: **الكوثر نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ**، ولكنه عدل عن هذا الأمر، ومهّد لهذا البيان بالاستفهام عن درايتهم بالكوثر؛ فقالﷺ: "**أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟**" ولا ريب أنهم لا دراية لهم بهذا المعنى؛ إذ هو من أمور الآخرة التي لا تدريها النفوس إلا بوحي؛ فالاستفهام ليس على حقيقته؛ إذ المستفهِم يعلم الجواب، ولعله جاء من النبيﷺ تمهيدًا للحديث عن المعنى، وتهيئةً للنفوس؛ وذلك لخطورة المعنى المتحدَث عنه؛ فالكوثر من أعظم النعم في الآخرة؛ فهو مما فُضِّل به النبيﷺ، وهو رحمة للمؤمنين؛ تتعلق به قلوبهم، وما من مؤمن صادق الإيمان إلا ويرجو ورودًا عليه وشربةً منه.

(١) مسلم: ١/ ٣٠٠، رقم: ٤٠٠.

الخاتمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد،،،

فبعد تلك المعايشة لهذا الأسلوب النبوي يمكن الخلوص لما يأتي:

١_ التهيئة للمعنى من أهم وسائل التعبير التي يلجأ إليها المتكلم؛ لتثبيت معانيه في ذهن المخاطب، وهو إنما يلجأ إليها حين يجلّ المعنى ويعظم الخطب، أو حين يخشى غفلةَ المخاطب وفواتَ ما ينفعه.

٢_ من لوازم أسلوب الاستفهام أنه يجعل السامع يرجع إلى نفسه لعله يجد جوابًا، وهذا الرجوع من أهم أسباب تنشيط الذهن وتنبيه العقل؛ لذا كان الاستفهام من أهم أساليب التهيئة للمعنى، وقد ورد منه في البيان النبوي الاستفهام عن الدراية؛ فكان النبيﷺ يسأل أصحابه: **أتدرون؟ هل تدرون؟** حين يقتضي الأمر تهيئة نفوسهم لتلقي المعنى.

٣_ آثر النبيﷺ في هذا الأسلوب التعبيرَ بالدراية دون العلم؛ لدلالتها على الفهم؛ فكأنهﷺ لا يسأل عن وقوع الشيء في خاطر الحاضرين، ولكنه يريد ما وراء ذلك من الفقه والفهم، وقد جاء جواب النبيﷺ دالًّا على هذا المعني، ولا عجب في ذلك؛ فالنبيﷺ أدّبه ربُّه وعلّمه وأدراه بما لم يَدرِ به غيره؛ فدرايتهﷺ دراية ربانية تعتمد على الوحي الإلهي.

٤_ ورد الاستفهام في كثير من المقامات بالهمزة وفي بعضها بـ(هل)، وورد في بعض المقامات مرويًّا بالهمزة في رواية، وبـ(هل) في أخرى، والمعنى متقارب؛ إذ الهمزة صالحة للتصور والتصديق، وهي هنا للتصديق، و(هل) للتصديق؛ فالأداتان تدلان على المعنى نفسه.

٥_ في المقامات التي أجاب فيها الحاضرون بقولهم: (الله ورسوله أعلم) عُدل فيها عن لفظ الدراية الوارد في السؤال إلى لفظ العلم؛ تنزيهًا لله ﷻ ووصفًا له بما وصف به نفسه؛ إذ وصف نفسه بالعلم، ولم يصفها بالدراية.

٦_ بالنظر إلى هذا الأسلوب في البيان النبوي في الصحيحين، نجد أنه وقع في موقعه؛ حيث يطلبه الحال ويقتضيه المقام؛ فقد ورد هذا الأسلوب تمهيدًا للحديث عن معنى الإيمان بالله وحده، وعن حرمة الدماء والأموال والأعراض، وعن سيادة النبي ﷺ للناس جميعا يوم القيامة، وعن إساءة أهل الكتاب والرد عليهم بمثل قولهم دون تجاوز، وعن بعض علامات الساعة، وعن الإفلاس بالمفهوم النبوي، وعن بُعْد قعر جهنم، وعن جرأة العبد على ربه يوم القيامة، وهي معانٍ جليلة تحتاج النفوس إلى تهيئةٍ عند الحديث عنها.

٧_ **<u>في أكثر المقامات التي ورد فيها هذا الأسلوب</u>** أجاب الصحابة الحاضرون بما يدل على تأدبهم؛ حيث رجعوا العلمَ إلى الله والرسول: **(أَتَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِاللَّهِ وَحْدَهُ" قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ _ "أَتَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟". قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ _ أَتَدْرُونَ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟، قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ... <u>أَفَتَدْرُونَ</u> أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟ قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ... أَفَتَدْرُونَ أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ _أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ _ أَتَدْرُونَ أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ الشَّمْسُ؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ _ أَتَدْرُونَ لِمَ جَمَعْتُكُمْ؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ _ تَدْرُونَ مَا هَذَا؟ قَالَ: قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ _ هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟ قَالَ: قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ _ أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟ فَقُلْنَا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ)** وقد كان هذا دأبهم مع النبي ﷺ، **<u>وفي مقام واحد من المقامات التي تناولتها الدراسة</u>** أجابوا بما يظنون أنه لا جواب غيره؛ حيث سُئلوا عن المفلس؛ فقالوا: **(<u>الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ</u>)، <u>وفي ثلاثة مقامات من المقامات التي تناولتها</u>**

الدراسة لم يمهلهم النبيﷺ حتى يُجيبوا، بل سألهم عن درايتهم، ثم بيّن لهم ما أراد بيانه، وذلك قوله: **(أَتَدْرُونَ مَا يَقُولُ؟ قَالَ: السَّامُ عَلَيْكَ _ أَتَدْرُونَ مَتَى ذَاكُمْ؟ ذَاكَ حِينَ {لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا} _ أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَلِكَ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ...)** وتلك المقاماتُ التي لم يُمهل النبيﷺ أصحابه حتى يُجيبوا أشدُّ دلالة على أن تلك الاستفهامات إنما جيء بها لتنبيه السامع وتهيئته لتلقي المعنى، وقد أثبتت الدراسة أن ما ورد من هذا الأسلوب في غير تلك المقامات الثلاثة إنما هو للتهيئة أيضًا، وإن كانت التهيئة في المقامات الثلاثة أشد وضوحًا.

٨_ مما يؤكد أن الاستفهام عن الدراية في هذا الأسلوب مقصودٌ به تنبيهُ السامع وتهيئتُه لتلقي المراد وقوعه مع الغيبيات التي لا تُدرى إلا بوحي؛ فأنى للمخاطبين أن يعلموا: أين تذهب الشمس، وأنى لهم أن يعلموا: ما الكوثر، وأنى لهم أن يدركوا سبب سيادتهﷺ للناس يوم القيامة، وتلك أمور لا تُدرى إلا بوحي؛ فإذا سُئلوا عنها _وعدم درايتهم معلومة يقينا_ عُلم أن السؤال ليس على حقيقته، وإنما مقصود به أمر آخر، هذا الأمر هو التهيئة للمعنى، وقد أثبتته الدراسة.

هذا، والله أسأل أن يتقبل صالح أعمالنا، وأن يغفر لنا زلاتنا وتقصيرنا، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

فهرس المصادر والمراجع

أولا: القرآن الكريم

ثانيًا: المصادر والمراجع:

١_ إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، القسطلاني، المطبعة الكبرى الأميرية، ط٧، مصر، ١٣٢٣هـ.

٢_ إكمَالُ المُعْلِمِ بفَوَائِدِ مُسْلِم (شَرْحُ صَحِيح مُسْلِمِ)، للقاضي عياض، تحقيق: د/ يحْيَى إِسْمَاعِيل، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر.

٣_ البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق/ علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

٤_ البيان والتبيين، للجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ.

٥_ التوضيح لشرح الجامع الصحيح، لابن الملقن، تحقيق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، دار النوادر، ط١، دمشق، سوريا، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م.

٦_ االتفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم، د/ عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، ط٣، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

٧_ الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول اللهﷺ وسننه وأيامه (صحيح البخاري)، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ.

٨_ دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلّق عليه: محمود شاكر، دار المدني بجدة، ط٣، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

٩_ دلالات التراكيب دراسة بلاغية، د/ محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط٤، القاهرة، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

١٠_ شروح التلخيص، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

١١_ العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤٠٤هـ.
١٢_ الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري، حققه وعلق عليه/ محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة.
١٣_ لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، ط٣، بيروت، ١٤١٤هـ.
١٤_ المسالِك في شرح مُوَطَّأ مالك، للقاضي ابن العربي المالكي، قرأه وعلّق عليه: محمد بن الحسين السُّليماني وعائشة بنت الحسين السُّليماني، قدَّم له: يوسف القَرَضَاوي، دَار الغَرب الإسلامي، ط١، ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م.
١٥_ المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول اللهﷺ (صحيح مسلم)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	رقم الصفحة
١	مقدمة	١٦٠١
٢	التمهيد	١٦٠٥
٣	المقام الأول: التهيئة للحديث عن معنى الإيمان بالله وحده	١٦٠٧
٤	المقام الثاني: التهيئة للحديث عن عداوة أهل الكتاب وكيفية التعامل معهم	١٦١٢
٥	المقام الثالث: التهيئة للحديث عن كفر من قال (مُطرنا بالنوء)	١٦١٣
٦	المقام الرابع: التهيئة للحديث عن حرمة الدماء والأموال والأعراض	١٦١٥
٧	المقام الخامس: التهيئة للحديث عن المفلس	١٦١٩
٨	المقام السادس: التهيئة للحديث عن بعض علامات الساعة وبعض أحوال الدار الآخرة	١٦٢٢
٩	المقام السابع: التهيئة للحديث عن فضل النبيﷺ على الخلق كلهم يوم القيامة	١٦٢٦
١٠	الخاتمة	١٦٣١
١١	فهرس المصادر والمراجع	١٦٣٤
١٢	فهرس الموضوعات	١٦٣٦